دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	أضواء على الفكر السياسي السوداني الحديث : حسين شريف ... الصحفي السوداني الأول
المصدر:	مجلة محاور
الناشر:	جامعة ام درمان الاهلية - مركز محمد عمر بشير للدراسات السودانية
المؤلف الرئيسي:	صالح، محجوب محمد
المجلد/العدد:	ع1
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1998
الشهر:	يوليو
الصفحات:	35 - 51
رقم MD:	641239
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex, EcoLink
مواضيع:	السياسة السودانية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/641239

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

أضواء على الفكر السياسي السوداني الحديث (1) :

حسين شريف ... الصحفي السوداني الأول

1886 – 1928م

الأستاذ/ محجوب محمد صالح*

كتب كثير من الباحثين عن الدور العظيم الذي لعبته الصحافة والمدارس الفكرية السودانية التي نشأت في ثلاثينيات هذا القرن في أم درمان وواد مدني، وأثرها في تحديد الملامح الذاتية السودانية وخلق عناصر الفكر السياسي السوداني المعاصر، وتمهيد السبيل لنشوء الأحزاب السياسية التي قادت مسيرة العمل الوطني في البلاد. وهم محقون فيما ذهبوا إليه، ولكنني اعتقد أنهم أغفلوا فترة "المخاض" التي سبقت ذلك النشاط وتجاهلوا الدور الذي لعبته النخب المتعلمة – على قلتها – مطلع هذا القرن. إن الفترة الممتدة من نهاية العقد الأول وحتى عام 1924م فترة بالغة الأهمية في نشأة وتطوير الفكر السياسي السوداني، وفي تحديد معالمه وأبعاده، وقد انعكس أثرها – سلباً وإيجاباً – على حركة الثلاثينيات. هذه الفترة كانت تحمل كل سمات مرحلة المخاض بما فيها من قلق وآمال، مثلما تحمل سمات مرحلة (التحدي والاستجابة) بما فيها من معاناة، وما تحفل به من أفعال وردود أفعال. كان المثقفون يومها يتلمسون طريقهم ويتحسسون مواطئ أقدامهم وهم يسيرون على طريق لم يألفوه من قبل، ويقابلون تحدياً من حضارة وافدة منتصرة وهم المهزومون – حضارة وافدة تقف في مواجهة تراث حضاري عريق: (الأنا) و (الآخر) يتواجهان في معركة غير متكافئة، وفي ظروف بالغة التعقيد. فالحضارة الوافدة فرضت سيطرتها بقوة الحديد والنار والسلاح المتقدم، وبسطت نفوذها بتنظيم إداري حديث يدعمه جيش احتلال، ورسخت أقدامها بمشاريع اقتصادية وعمرانية يقف وراءها السوق العالمي. بل كانت المدارس التي تخرجوا منها والمناهج التي درسوها جزءاً من هذه الحضارة الوافدة. هذا هو "التحدي"، فكيف كانت "الاستجابة"؟

في هذه الحلقة الأولى نتعرف على الاستجابة عند مفكر رائد بين مفكري هذه المرحلة هو حسين الخليفة شريف، الصحفي السوداني الأول الذي أجمع معاصروه – بما فيهم أولئك الذين اختلفوا معه سياسياً ورفضوا أفكاره السياسية – على كفاءته وقدرته وفكره.

* صحفي وكاتب معروف.

حسين شريف، حفيد المهدي، أمه كانت كبرى بنات المهدي، أما أبوه الخليفة شريف فثالث خلفاء المهدي وتربطه به قرابة لصيقة. ولد حسين شريف عام 1886م، بعد عام واحد من وفاة المهدي، وعاش تحت الدولة المهدية إثني عشر عاماً من عمره قبل أن تسقط رايتها في كرري. وقد وقع الصراع بين الأشراف وخليفة المهدي وحسين في طفولته، وشهد أباه يجرد من كل سلطة ليزج به في السجن، ثم لا يخرج منه إلا مع بداية الغزو ليشهد كرري ويحارب مدافعاً عن المهدية، ويمت برصاص الإنجليز لاحقاً في الشكابة. وهو من جيل السيد عبد الرحمن المهدي الذي يكبره ببضعة شهور، وكانت صلتهما حميمة ولصيقة؛ مما أهله لأن يلعب دور المنظر الأول "للمهدية الجديدة"، والناطق باسم القوى التقليدية في مرحلة لاحقة. على أنه احتفظ بصلات عميقة ومتطورة مع أولئك الذين اختلف معهم في الداخل، مثلما مد جسور المودة مع بعض المصريين الذين عارضهم سياسياً. يحدثنا ابنه زين العابدين أنه كان صديقاً حميماً للشاعر المصري حافظ إبراهيم، وأنه في زيارة للقاهرة شكا له من هجوم الصحافة المصرية على القيادات السودانية، وأن حافظاً توسط في لقاء يجمعه مع سعد زغلول. غير أن اللقاء لم يتم. كما يحدثنا نفس المصدر أن اللواء محمد نجيب، عندما تولى رئاسة الجمهورية المصرية، قال إنّه في شبابه عرف كثيراً عن الصحافة المصرية ــ وهو المصري ــ من حسين شريف الذي كان وثيق الصلة به أثناء الفترة التي عاشها في السودان [1].

كان حسين شريف في السابعة عشر من عمره عندما صدرت أول صحيفة في السودان عام 1903، أنشأها ثلاثة من بني الشام، بإيعاز من السلطات البريطانية، امتداداً لدار صحفية يملكونها في القاهرة، هي دار المفطم التي عرفت بمساندتها للاحتلال البريطاني لمصر وولاءها للإنجليز. فكانت "السودان" التي أصدروها في الخرطوم تسير على نفس النهج، ولكنها بهرت الشبيبة المتعلمة لأنهم اكتشفوا فيها وسيلة للتعبير ما عرفوا لها مثيلاً. لقد تزامن ظهور جريدة السودان مع افتتاح كلية غردون وإنشاء بعض المدارس الوسطى، فلم تمر بضع سنوات حتى كان الخريجون الجدد من بين قراء السودان وكتابها. وكان حسين شريف من بين السودانيين الأوائل الذين كتبوا على صفحاتها، ولكن مساهماته عن بعد أقنعته بأهمية هذه الوسيلة الحديثة وضرورة اهتمام السودانيين بها.

فئات اجتماعية جديدة

نلاحظ في هذه الفترة المبكرة ــ عام 1910 ــ أن حسين شريف كان يعي جيداً أبعاد التحول الذي حدث في المجتمع نتيجة للمشروع البريطاني، كما يعي دور الفئات الاجتماعية الجديدة التي أفرزها ذلك المشروع ــ المتعلمين تعلماً عصرياً، والشباب عامة والتجار والزراع في مشاريع دائمة مستقرة، بل والمرأة التي قبعت في سجن التقاليد.لذلك نلتقي به على صفحات جريدة

السودان أولاً، وجريدة الرائد ثانياً، وأخيراً في جريدة حضارة السودان التي أسسها عام 1919. وإذ يخاطب هذه الفئات ويرسم أبعاد المشروع النهضوي الذي يتبناه ويبشر به، نلحظ سعيه الدؤوب لخلق مؤسسات المجتمع المدني الحديث القادرة على تنفيذ ذلك المشروع. لقد ظل يدعو هذه الفئات لتكوين تنظيماتها وخلق آليات مثل النادي، الاتحاد والصحيفة.

يبدأ حسين شريف خطابه النهضوي باستنفار المتعلمين عام 1911 لينفضوا عنهم غبار الكسل الذي قعد بالمجتمع السوداني، ويلوم المتعلمين والمستنيرين بهذه الأنوار العصرية ــ هذه الناشئة الجديدة ــ [2] على أن البلاد تعلق عليهم آمالاً عريضة وأنهم يضيعون وقتهم فيما لا طائل وراءه، ويستحثهم على أن يمضوا "وقت فراغهم في محل واحد فتقوى في قلوبهم دعائم المحبة والائتلاف ويجدون من اتساع العقول و تنمية المعلومات ما يجعلهم يستمرون في عقد هذه النوادي"[3].

كانت هذه أول محاولاته لتجميع الخريجين في ناد واحد لتجنيد طاقاتهم في سبيل العمل العام، وهي دعوة ظل يرددها إلى أن تحققت عام 1918 بقيام نادي الخريجين بأم درمان. وأجمع الخريجون على انتخابه قائداً له.

ويدرك حسين شريف أن العمل داخل غرف الأندية لا يخدم الدور النهضوي بالدرجة التي يريدها، إذ لا بد من الخروج بذلك المشروع إلى رحاب واسع، فيفكر في صحيفة سودانية تقود هذا العمل وتصبح منبراً قيادياً للرأي العام. ها هو يقرر في مقال لاحق "إن التاريخ يدلنا على أن الكتاب والشعراء في كل بلد هم قادة الأمم والشعوب ومفتاح أقفال العقول"، وينبه إلى الدور الذي تلعبه الصحافة في بلاد الشرق والغرب في صنع وقيادة الرأي العام، وريادتها "في هذا العصر ...وسيطرتها على الرأي العام وملكها لزمام الحرب والسلم." ويمضي ليؤكد "أن صناعة هذا شأنها لجديرة بأن يبذل لها غالي الهمم"[4]. ويخلص من ذلك لدعوة السودانيين في إصدار صحيفتهم، وهي دعوى لم تتحقق إلا بعد ثمانية أعوام حين إنشاء جريدة الحضارة عام 1919م.

وإلى جانب المتعلمين يهتم حسين شريف بالفئات الحديثة الأخرى، فينبه التجار الوطنيين إلى أن التجار الأجانب يسيطرون على اقتصاد البلاد، وأنهم لن يفلحوا في زحزحتهم إلا باتحادهم وتعاونهم وتحديث أساليب عملهم لأن "التاجر الوطني يجد نفسه محاطاً بعناصر قوية امتلكت بجدها ودربتها وثروتها أزمة الأسواق واستلمت مقاليد الوارد والصادر، وبقي هو أمام واحد من ثلاث: إما الاكتساب من بين أناملها أو الرضاء بما يسقط منها من الفتات والفضلات أو الرجوع بخفي حنين". كان ينصحهم بالاتحاد وبالانضواء تحت راية "تحفظ كيانهم وتقوي بنيانهم وتجعلهم يستطيعون السير وسط هذا الزحام"، بل يقترح عليهم تغيير أساليب التجارة وترقيتها عن طريق الإسهام في

إنشاء قسم تجاري في كلية غردون.[5]

ويخاطب الشباب فيقول إن ما يحسونه من إحباط ناتج عن ضعف الإرادة والاندفاع مع سيل المدينة الجارف، وأن هذا بدوره ناتج عن ضعف التربية، مما يقتضي مناقشة الأمر في المجالس والأندية والصحف حتى يتحقق الإصلاح؛ ويقرر أن جهل العامة للدين قد أدى إلى الإفساد والتضليل، ويدعو علماء الدين لتوعية الناس إلى الدين الحق في المساجد، ويعرج على المرأة فيدعو إلى تعليمها وإلى "فك أغلال العادات عن عنقها وتبديد سحب الخرافات المتراكمة في ذهنها"، على أن يتم ذلك في إطار الحدود التي رسمها الدين حقاً، لا تلك التي يتوهمها الناس جهلاً، إذ أن "الإسلام لم يضع المرأة هذا الموضع الذي نضعها فيه نحن اليوم — موضع الماعون والمتاع بل وضعها في إحدى كفتي الميزان"[6].

لقد تحدث حسين شريف عن الدور الذي تلعبه هذه الشرائح الحديثة في المشروع النهضوي وحاول أن يستنفرها جميعاً وأن يقترح لها آليات للعمل: النادي والصحيفة والاتحاد؛ كما حاول أن يجند طاقاتها في مشروعات وطنية مشتركة، فاقترح قيام صندوق أهلي يجمع التبرعات من القادرين ليدعم العمل الطوعي في ميدان التعليم ويساعد المحتاجين. فهو يقترح أن "ينشأ صندوق وطني عام تجمع له ... الإكتتابات التي يجود بها كل فرد، وتنفق هذه المبالغ في سبيل توسيع التعليم وترقيته وتعليم الفقراء وإيواء المشيخة العلمية وتحسين حالة المساجد"[7]. ويظل صدى هذه الدعوة يتردد إلى أن تخرج المدرسة الأهلية للوجود عام 1926، وتتبعها الأحفاد وملجأ القرش، ويستوي العمل الطوعي على سوقه في (يوم التعليم) تحت راية المؤتمر.

التحدي والاستجابة

كان حسين شريف يرى أن التحدي الذي يواجه السودان إزاء المشروع البريطاني ينبغي أن يقابله مشروع سوداني، فالاستعمار البريطاني خلق في البلاد وضعاً جديداً وأدخل تغيرات في بنية المجتمع تمثلت في نظام تعليمي جديد، وفي نظام اقتصادي جديد، وطريقة جديدة في الزراعة، وارتباط بالسوق العالمي، وسكك حديدية ومواصلات نهرية ومدن جديدة — كل هذه معطيات جديدة لا بد من التعامل معها بإدراك ووعي، فقد وضعت السودان على أعتاب مرحلة انتقال لا بد لأهل السودان أن يضبطوا إيقاعها، ويحددوا معالمها ويتحكموا في التطور. في هذا الصدد يقول:

"إن التطور سنة الحياة ... وهو رخو من يتشكل حسب القوالب التي يفرغ فيها وحسب الطبائع والظروف والأحوال التي تحيط به"، وأنه ينبغي على الأمة أن تواجه التطور وهي مدركة لواجبها في أن توفق بين القديم والجديد وبين تراثها وعصرها، وأن تحدد لنفسها "غاية معينة عليا، وتأخذ من قديمها وحديثها ما يحسن ويجمل، وأن توفق بين روحها والعصر وتصب مدنيتها في قالب مزاجها. وهي إن لم تفعل ذلك ذهبت أدراج رياح

المؤثرات والفتن، وكانت للفوضى والضلال والفساد أكبر قدوة وأعلى مثل"[8]. وهو ينصح بأن يتأملوا الحضارة الغربية في جوانب معينة هي "أحوالها الداخلية ونزاعاتها القومية وحرياتها التعبيرية وتكويناتها الديمقراطية ... ننظر فيها بعين العبرة والعظة ونستخلص منها صورة تنطبق على حالنا"[9].

إذن المشروع الذي يدعو له والاستجابة للتحدي التي يرضاها هي استجابة توفيقية تصالحية بين التراث والعصر، بين الأصالة والحداثة، وبين الاستمرارية والتغيير. فهو يرى أن مرتكزات المشروع هي وجود الشعب السوداني المسلم بتراثه وخبراته وتجاربه، وحضارة الشعوب الأخرى يتفاعل معها ويتمثلها "شعب عربي مسلم ... له من مجد آبائه وهدى دينه معين من القوة لا ينضب ...ومن عبر الماضي وعظات التقلبات مدد من الرشد لا ينفد، وأمامه من نزعات الأمم بحر لا ساحل له"[10]. إذن مرتكزات المشروع هي: العروبة ــ الإسلام ــ تجارب الماضي ــ الحضارة الوافدة ... كل هذه العناصر امتزجت وتفاعلت خلال هذه الفترة التي عاشها السودان "تحت مؤثرات العصر الجديد مكتحلاً بأنواره المشرقة مختلطاً بجماعاته الناهضة وشعوبه المستيقظة"[11].

النهضة والوحدة الوطنية

ماذا كانت نتيجة هذا التفاعل في نهاية العقد الثاني من القرن العشرين؟ هل برز للوجود "مشروع نهضوي سوداني" بعد عشرين سنة من الحكم البريطاني؟ يجيب حسين شريف بالإيجاب. ويقول إن هناك نهضة سودانية وإنها "حقيقة واقعة، لكنها ضعيفة مذبذبة، وقد حان الوقت للنظر فيما يقويها وينميها ويولي وجهها شطر غاية معينة"[12]. ولن يتم ذلك بجهد فردي بل يحتاج لعمل جماعي "يولد حركة إصلاحية في المنازل والمدارس، وفي المعاهد والمساجد، وفي المتاجر والمزارع، ويؤثر في الأنفس والعقول والأخلاق والآداب"[13]. وإذا ما تبلورت الأفكار بعد هذا النشاط الإصلاحي، "عند ذلك ينبغي لقادة الأمة ومفكريها أن يتولوا قيادة هذه الرغائب برأي صائب"[14]، ملتزمين المصلحة العامة المجردة عن الهوى. وينبه حسين شريف أن السودان لن يبلغ هذا الطور ما لم "يتكون له رأي عام يصح التعويل عليه والتعبير عنه"[15]. وهذه هي المهمة العاجلة التي ينبغي أن ينشغل بها الناس وتوقف الحضارة صفحاتها لها.

أما الإطار العام لهذا المشروع الذي ينبغي أن ينبني حوله الرأي العام في السودان فلا بد أن يلبي احتياجات وتطلعات السودانيين في شتى مناحي الحياة، ذلك لأن "الشعب السوداني شعب شاذ، فهو متطلع إلى كل شيء، خلو من كل شيء، ومحتاج لكل شيء ... محتاج إلى التربية والتعليم،ومحتاج إلى التدريب والتهذيب، ومحتاج إلى ترقية الزراعة وإحياء الصناعة ووسائل الاستثمار، ومحتاج إلى المال"[16].

إن حسين شريف يقوم بجرد "لمطالب" الشعب السوداني التي ينبغي أن يتبناها المشروع، ويكاد أن

يرسم برنامجاً حزبياً للإصلاح والتنمية ـــ هذا هو مشروع النهضة، وهذه هي القوى التي ينبغي أن تنفذه.

ولكي يتحقق ذلك يرى حسين شريف أنه لا بد من "الوحدة الوطنية" التي تستنفر طاقات الشعب للعمل، مؤكداً أن "وحدة الأمة هي جمع كلمتها تحت غاية واحدة ..." ومستعرضاً ما حققته الوحدة الوطنية للشعوب المختلفة لذلك فهو يسعى "لتنبيه أذهان قومنا، وتحريك هذه العاطفة الغريزية في نفوسهم وإلباسها ثوب الوطنية القشيب الذي ظهرت به أمم الغرب فأدهشت العالم ... وجاءوا بالمعجزات". وهو يرى أن ثمة عوامل عديدة تفرض على السودانيين أن يحققوا وحدتهم الوطنية، متسائلاً "ألا يكون الشعور بالفقر والضعف والجهل والتأخر حاجة كافية لتولد روح الوئام بيننا على الأقل حتى نستطيع أن نكافح بها صعوبات الحياة؟"[17].

هذا هو المشروع في بداياته. إنه يركز على البناء الداخلي لتمهيد الأرضية. يود لقوى المجتمع الحديثة ـــ المتعلمين والتجار والشباب والمرأة ورجال الدين ـــ أن يلعبوا دورهم في النهضة السودانية بالتعليم والتربية ومحاربة الجهل والخرافة، وبناء منظمات المجتمع المدني، وزيادة النشاط الاقتصادي، وتحرير العقول من الشعوذة والدجل، والعودة بالدين للمحجة البيضاء. ويود لهم جميعاً أن يساهموا في حوار بناء لبلورة رأي عام سوداني يحدد مسارهم الوطني في إطار وحدة وطنية شاملة. ما كان ذلك كله مكان خلاف، لكن يبقى السؤال المهم: في أي إطار سياسي يتم ذلك كله؟ ما هو الهدف السياسي الذي يسعى المشروع لتحقيقه؟

ما كان حسين شريف يجهل أهمية السؤال. على أن ظروف المرحلة لم تكن تسمح بالإجابة عليه، فالصحافة تعيش تحت رقابة مباشرة ولصيقة، ولا تنشر إلا ما تجيزه السلطة وهي ـــ أي السلطة ـــ ما كانت تقبل حديثاً سياسياً. بالإضافة لذلك فإن العمل السياسي المباشر لم يكن قد بدأ في السودان آنذاك، فقد كانت الرؤى والأفكار السياسية تجول بخاطر الشباب المتعلم ولكنها لم تخرج للعلن، و لم ينشأ أي تنظيم سياسي في السودان إلا عام 1920 بعد نشر هذا المقال بعام من الزمان، حين قامت جمعية الاتحاد السوداني. أما "الحضارة" ـــ الصحيفة التي نشرت هذه المقالات ـــ فلم يكن عمرها يتجاوز الشهرين إذ صدرت في نهاية فبراير عام 1919 ناطقة بلسان الأنصار، وكان المساهم الأول في الشركة التي أنشأها السيد عبد الرحمن المهدي[18]. وما أحسب أن حسين شريف حين، تغاضى عن الجانب السياسي، كان يعلم أن الظروف ستفرض عليه عاجلاً أن يخوض المعركة السياسية بكل أبعادها. ذلك أنه لم يكد يفرغ من نشر مقالاته حتى اندلعت فجأة الثورة المصرية واضعة المسألة السودانية في صدر شعاراتها حين نادت بوحدة وادي النيل. عند ذلك تخلى الإنجليز عن حرصهم التقليدي في عدم إثارة مصر، وقرروا أن يخوضوا المعركة ضدها وأن يدعوا قوى المجتمع

التقليدي السوداني لتتصدى للدعوة المصرية.

وعليه سارعت الإدارة البريطانية لتشكيل وفد من تلك القوى ليسافر لبريطانيا معلناً ولاءه لحكمها، رافضاً دعاوى مصر ومنادياً بأن يظل السودان تحت إشراف بريطانيا حتى يبلغ سن الرشد. كان تشكيل الوفد يعكس أطراف التحالف الثلاثي: زعماء الطوائف، رؤساء القبائل وعلماء الدين ... أهل الحل والعقد في السودان أو "سراة البلاد" كما تسميهم الحضارة. عندما اشتدت المعركة وشنت الصحف المصرية هجوماً عنيفاً على هذا التحالف؛ وما كاد الوفد يعود من بريطانيا حتى أوقف حسين شريف صحيفة الحضارة مقترحاً أن تؤول ملكيتها لزعماء الطوائف الثلاث: السيد علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي، حتى تكتسب الثقل الذي تدافع به عن هذه "المؤسسة التقليدية" كلها، لا عن شريحة منها. وتم له ما أراد فخرجت الحضارة من جديد بملكية جديدة، ولكن ظل حسين شريف على رأسها ليتابع مشروعه بتحديد أهدافه السياسية.

صدرت الحضارة المملوكة للسادة الثلاثة يوم 24 يوليو عام 1920، ومنذ صدورها تصدت لمصر وصحافاتها وشعار وحدة وادي النيل الذي رفعته الثورة المصرية، ونشرت أربعة مقالات عن المسألة السودانية لخص فيها حسين شريف موقف القيادات التقليدية من قضية السودان السياسية رافعاً شعار (السودان للسودانيين). في تلك المقالات أعلن حسين شريف رفض الدعاوى المصرية حول وحدة وادي النيل مؤكداً أن السودان قومية منفصلة، وأنه ظل طوال تاريخه مستقلاً عن مصر عدا السنوات التي تعرض فيها لغزو مصري، وأنه في موقف لا يسمح له بإدارة شئونه الآن بنفسه ويحتاج إلى إرشاد وتدريب في فن الحكم، وأن بريطانيا ــ لا مصر ــ هي خير من يقوم بهذه المهمة، ولذلك يجب أن تنفرد بحكم السودان وتضع حداً لنظام (الحكم الثنائي) الشاذ[19]. كان هذا هو موقف كل القيادات التقليدية. وقد أمن عليه السيد علي الميرغني عام 1922م أمام اللورد اللبني، عند زيارته للخرطوم، عندما خطب في الحفل الرئيسي الذي أقيم في سرايا الحاكم العام قائلاً: "إن السودان بلد قائم بنفسه، وشعبه شعب قائم بنفسه يتطلب رقياً قائماً بنفسه على الأسلوب الذي يلائمه"[20].

وأعرب السيد علي عن أمله في أن يستمر التقدم تحت الإدارة الإنجليزية. على أن هذه الآراء كانت تتعارض مع أفكار شباب المتعلمين المناهضين للاستعمار البريطاني مما سنتعرض له في حينه. ولا بد أن نتوقف هنا مع مشروع حسين شريف الذي رصدنا من قبل أبعاده الاجتماعية ووقفنا الآن على إطاره السياسي، كي نتبين بعض الركائز الفكرية التي يقوم عليها، ونحاول أن نتعرف على أبعادها ومصادرها.

أولاً: نلاحظ أنه اتخذ موقفاً ناقداً للدولة المهدية إبان حكم الخليفة عبد الله، فهو حين يتعرض للفترة التي أعقبت انتصار الثورة وسقوط الحكم التركي يقول إن السودان انشغل "بنقض بنيانه وتخريب

استقلاله". وحين يحدد أسباب الغزو الإنجليزي المصري للسودان عام 1898م يدرج من بينها "الفوضى التي ضربت أطنابها" في السودان[21]. يجئ هذا التقييم على لسان ابن خليفة المهدي الثالث الذي قضى أبوه زمناً طويلاً في السجن نتيجة لصراع الخليفة مع الأشراف. تأتي أهمية هذا الموقف من أنه اصبح جزءاً من فلسفة "المهدية الجديدة" وهي تعكس رغبة في مصالحة وطنية مع القبائل والجماعات -النيلية خاصة- التي تأذت من سياسات حكم الخليفة عبد الله.

ثانياً: اتخذ حسين شريف من موضوع "الدولة السودانية" موقفاً مخالفاً لتراث المهدي الذي كان يريد للمهدية أن تمد نفوذها لتشمل المسلمين في كل مكان، بحسبان أن الإسلام دولة واحدة وأنها تتجاوز الأعراق والحدود. في هذا الأمر انحاز حسين شريف انحيازاً تاماً "للدولة القومية" ذات القومية الواحدة والحدود المعلومة، ورفض مقولة أن وحدة الدين تعني وحدة الدولة. كان هذا الموقف رد فعل لدعوة وحدة وادي النيل التي يبنيها المصريون على عدة عوامل، أهمها "الدين الواحد". قال حسين شريف إن زمن قيام الدولة الإسلامية الواحدة قد انتهي، وإن علاقة المسلم بالمسلم أصبحت علاقة عقيدة واحدة. أمّا "فيما عدا ذلك أصبحت كل أمة تنادي بالوطنية في بلادها وتشيد على أساس القومية بناءها... وأما تلك الوحدة التي كانت تجمعهم جامعتها أيام عهودهم الأولى ودولهم الراشدة فقد انفرط عقدها.... ولم تبق منها إلا عقيدة تعتصم بها القلوب، وقبلة تتجه إليها الوجوه، وكتاب تتلوه الألسنة وتجّله الأفئدة"[22]. هكذا حدد موقفه لجانب الدولة القومية، رغم أن الإنجليز كانوا يتهمونه بمساندة فكرة الجامعة الإسلامية واعتقلوه خلال الفترة الحرب العالمية الأولى للشك في تعاطفه مع الخلافة الإسلامية في تركيا، ونفوه إلى منقلا في جنوب السودان ردحاً من الزمن ثم أعادوه إلى الخرطوم. لقد اتخذ موقفه رداً على الجهود المصرية لتوظيف "الوحدة الدينية" في الدعوة لوحدة وادي النيل.

ثالثاً: يرى حسين شريف أن المؤسسة التقليدية، وخاصة زعماء الطوائف الدينية الثلاثة في السودان - السيد علي الميرغني والسيد عبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي — هم الممثلون الوحيدون لشعب السودان، ولذلك فهو يرى جريدة الحضارة لمجرد أنها "تنضوي تحت أسمائهم الثلاثة تنطق بلسان الأربعة ملايين التي يقلها هذا الإقليم". وهو هنا إذ يعتمد على مريدي الطوائف في إثبات شرعية التمثيل، يدخل في صراع مع المتعلمين الذين يعتبرون أن الوزن الحقيقي للقيادة يكمن في مدى وعيها السياسي ونفوذها الاجتماعي وقدرتها على فهم وتقييم القضايا الحديثة — وهذا الصراع لا يزال يدور في السودان ويتخذ أشكالاً مختلفة ويؤثر على الاستقرار السياسي. وقد كان هذا الموقف من حسين شريف هو بداية الصراع.

رابعاً: إن الرقابة المباشرة على الصحف ما كانت تسمح لحسين شريف أن يكتب شيئاً لا ترضى عنه

الحكومة، فكل ما ينشر يجب أن يجاز مسبقاً من السلطة البريطانية. لذلك فإن كثيراً من القضايا التي أثارها تظهر عليها آثار "المصانعة" لضمان السماح بالنشر، وآثار التحفظ حتى لا يشطبها قلم الرقيب. فهو على سبيل المثال يشير إلى "المبادئ الولسونية"، مبادئ الرئيس الأمريكي ويلسون التي ضمنها ميثاقاً أثناء الحرب العالمية الأولى من أربعة عشر نقطة، أهمها حق تقرير المصير للشعوب الرازحة تحت نيِّر الاستعمار. وعندما يشير حسين شريف إلى هذه المبادئ يؤكد أن المصريين استلهموا هذه المبادئ في ثورتهم، ولكنه لا يتحدث مباشرة عن انطباقها على السودان في ذلك الوقت أو أي وقت لاحق، فما كان مثل هذا الأمر مما تجيزه الرقابة البريطانية. غير أن القارئ يستشف قصده من بين السطور. وكذلك عندما يتحدث عن الاستعمار، يتجاهل طبيعة مصالح وأهداف الدولة الاستعمارية ويفسر ظاهرة الاستعمار بالصراع الدولي وبقصور وتخلف الشعوب، مما يقتضي أن تتولى الدول المتقدمة إرشادها وتدريبها. ولا شك أن من يتابع أفكار حسين شريف يدرك أنه لا يجهل الأسباب الحقيقية للاستعمار، ولكن الظروف ما كانت تسمح له بحرية التعبير المباشر. ولذلك ينبغي ألا نعتمد في رصد وتحليل أفكاره على ما نشرته الحضارة وحدها بل نتابع ونتقصى أفكاره في مظان أخرى: روايات معاصريه، التقارير الرسمية، أو ما ينشره أو يسعى لنشره خارج السودان. وسنفعل ذلك في هذه الدراسة.

خامساً: يركز حسين شريف على أن الشعب السوداني عربي ومسلم، وهو بهذا يصف أهل الشمال لا أهل السودان كله. ويستوقفنا في هذا المجال غياب الجنوب تماماً في كل مشروعه الحضاري. وتتفرع عن هذه النقطة نقاط أخرى. فهو عندما حصر الأمر في شمال السودان وحده، رنا ببصره ــ بالضرورة ــ شمالاً وكانت مصر مدخله للعروبة رغم خلافه السياسي معها في دعاوى وحدة وادي النيل، ولم ينظر غرباً إلى إفريقيا الغربية التي ربطت بينها وبين المهدية صلات عميقة، ولم ينظر للشمال الغربي في إفريقيا رغم أن المهدي احتفظ بأحد مناصب الخلافة للسنوسي، ولا إلى دور المغرب العربي في نشر الاسلام، ولم ينظر إلى الجنوب والقبائل الأفريقية المتاخمة في جنوب السودان وأثرها عليه. وهذا التوجه نحو الشمال صار جزءاً من تراث الحركة الوطنية منذ نشأتها آنذاك وحتى الآن، وشمل كل القوى السياسية ، وما زلنا ندفع ثمن آثاره السالبة.

سادساً: فكرة التعاون مع الإنجليز والولاء للنظام البريطاني القائم في السودان ينبغي ألا نحكم عليها بمعايير اليوم، أو بمعايير الحركة الوطنية المتصاعدة في العالم العربي في أعقاب الحرب العالمية الثانية بل ينبغي تقييمها وفق الظروف التي كانت سائدة إبان الحرب العالمية الأولى (1914-1918) وما بعدها، عندما رفعت المنطقة العربية راية التعاون مع بريطانيا وإعلان الحرب إلى جانبها ضد الخلافة في تركيا والتحالف الذي تم بينها وبين الأسرة الهاشمية،

والعون الذي قدمته ـــ مالاً وسلاحاً وتخطيطـــاً ـــ لما أسمته الصحف يومها "الثورة العربية الكـــبرى". ويدخل في هذا الإطار التوجهات الإصلاحيـــة في مصر التي كانت ترمي إلى تحقيق الإصلاح في تعاون مع قوى الاحتلال، وهو تعاون بدأه الإمام محمـــد عبده إثر عودته من المنفى عام 1888 وواصله مـــن بعده تلاميذه، وعلى رأسهم أحمد لطفي السيد الذي تشير دراستنا إلى أن أفكاره كان لها تأثير كبير على حسين شريف.

إضافة إلى ذلك يبرر حسين شريـــف دعوتـــه لانفراد الإنجليز بحكم السودان بأسباب داخلية، على رأسها كفاءة الإنجليز وعدلهم وما حققوه من تقدم في السودان خلال عقدين من الزمان، وخطورة أن يتشارك في حكم البلاد دولتان بينـــهما خـــلاف مستحكم مثل بريطانيا ومصر، مما ينعكس سلباً على السودان.

ولا شك أن كثيرين كانوا منبهرين آنذاك بمـــا قدمه المشروع البريطاني وما حققه مـــن تقـــدم في مجالات الأمن والعدالة والزراعة والمواصلات، وهو وضع نجد له مثيلاً في مصر حيث أثرت الإصلاحات السريعة التي أدخلها الاحتلال في قطاعات كبـــيرة فأخذت تتعاطف معه. يحدثنا جمال محمد أحمـــد في كتابه "الأصول الفكرية للحركة الوطنية المصرية":

"مع الاحتلال البريطاني وجد الفكر الاجتماعي والسياسي في مصر نفسه أمام مشكلـــة جديـــدة : تحسنت أحوال الناس تحت الإدارة الجديدة إلى مدى بعيد. وضعت مالية البلد في بوتقة النظام، ضبطت الإيرادات والمصروفات ... قدرت الضرائب بعدالة وجمعت بانتظام ... أضحى الريف أوفر ازدهـــاراً وأمناً. كان هناك شعور وسط الفلاحـــين أنـــهم مدينون بذلك للنظام الجديد. ولكن ما كانت الحالة في المدن مثل ذلك" [23].

وفي السودان ـــ أيضاً ـــ ما كان غريباً أن يقود الانبهار بالإنجازات القوى التقليدية، في أعقاب مـــا عرفوه عن أخريات حكم المهدية، إلى (التعاون) مع الوافد الجديد. أما شباب المتعلمين فما كانوا يقبلون ذلك، واتجهوا نحو المقاومة والمواجهة.

خارج نطاق الصحافة

قلت إن الرقابة لم تمكن حسين شريف مـــن أن يعبر عن آرائه كاملة في صحيفة الحضارة، وأريد هنا أن نتوقف عند بعض مواقفه التي تعكـــس أفكـــاره خارج نطاق صحيفة الحضارة.

كانت صلته مع معسكر الشيباب حميمة رغـــم خلافهم السياسي معـــه ومع صحيـــفة الحضارة، وقد حاولوا أن يجدوا مكاناً بين صفحاتـــها. فقـــد أرسل لها علي عبد اللطيف عام 1924 مقالاً عـــن "مطالب الأمة السودانية"،حوى نقـــداً لمشـــروع الجزيرة وطالب بزيادة التعليم ومزيد من الوظـــائف للسودانيين وتخلى الحكومة عن احتكارها لســـلعة السكر، وما إلى ذلك. أبدى حسين شريف، فيمـــا يحدثنا أحمد فهمي الريح مديـــر إدارة الحضـــارة، تعاطفاً مع المقال وقبـــولاً للنقـــد الـــذي وجهـــه للحكومة، غير أنه أوضح للكاتب أن الوقت لم يحن لنشره. ورغم أن المقال لم ينشر فإن سلطات الأمن

اقتحمت مكاتب الجريدة وأخذت المقال واعتقلت علي عبد اللطيف وقدمت علي عبد اللطيف وحسين شريف للمحاكمة. وقد برأت المحكمة ساحة حسين شريف لأن المقال لم ينشر. لقد أخذت هذه الواقعة أبعاداً كبيرة، بل إن لجنة التحقيق الرسمية في أحداث ثورة (1924) اعتبرتها الشرارة التي أشعلت الفتيل.

ظل حسين شريف يجادل المسئولين البريطانيين في ضرورة التخفيف من شدة الرقابة، ويطالب بمنح الصحافة الحق في نشر المقالات التي تحمل نقداً للحكومة. وتحدثنا ابنة زين العابدين أن المسئولين البريطانيين رفضوا الفكرة زاعمين أن النقد العلني الذي يوجه للإدارة البريطانية عبر الصحف ستستغله مصر في الهجوم عليهم، لكنهم وافقوا على أن يكتب ما يشاء من نقد ويرفعه إليهم، لينظروا فيه. وقد فعل حسين شريف ذلك، وكان من بين الموضوعات التي كتب عنها مشكلة مشروع الجزيرة وإهمال الشركة للمزارعين والأمراض التي انتشرت بينهم [24]. إذن هو قد وجد وسيلة أخرى للتعبير عن آراءه وتوصيلها للمسئولين، وقد كان يحتفظ بصور مما يكتب، لا ندري إن كانت محفوظة حتى الآن.

وهناك مصادر أخرى تعكس مواقفه الفكرية، هي التقارير الرسمية لإدارة المخابرات التي كانت تتابع نشاط كل المتعلمين. نورد هنا مثلاً واحداً منها يشير إلى إن حسين شريف، وإن كان يتفق مع معسكر القوى التقليدية في السياسة العامة إلا أنه ومجموعة من كبار الموظفين الذين يتفقون معه في الرأي لا يريدون أن يطلقوا يد الإدارة البريطانية دون قيود، وكانوا يسعون للحصول على جدول زمني من الإدارة البريطانية يحدد موعداً لبلوغ مرحلة الحكم الذاتي وتقرير المصير الذي أرست دعائمه مقترحات ويلسون التي أشرنا إليها آنفاً[25].

ففي العاشر من يونيو 1924 وجه السيد عبد الرحمن المهدي الدعوة إلى أربعين من الأعيان وزعماء القبائل وكبار الموظفين للاجتماع بمنزله بالعباسية بأم درمان ليناقشوا مذكرة يرفعونها إلى الحاكم العام معلنين فيها تأييدهم للإدارة البريطانية في السودان في مواجهة إرهاصات ثورة 1923 وموقف مصر الضاغط لتحقيق وحدة وادي النيل. وقد تضمنت المذكرة التي أعدت الأفكار التي صاغها من قبل حسين شريف في صحيفة الحضارة: تأييد مطلق للإدارة البريطانية: وشجب للمظاهرات التي تساند مصر، ورفض دعاوى مصر في وحدة وادي النيل. كما التمست المذكرة أن تعين الحكومة مجلساً استشارياً من الأعيان.

أفادت تقارير المخابرات أن حسين شريف كان وراء حركة تهدف إلى أن تتضمن هذه المذكرة نصاً يحدد قيداً زمنياً للوصول للحكم الذاتي، وأن هذا الاقتراح تقدم به في الاجتماع أثنين من الموظفين بالاتفاق مع حسين شريف، وهما الشيخ السيد الفيل والشيخ بابكر بدري، إلا أن الاجتماع رفض الفكرة. جاء ذلك في خطاب من مدير الأمن إلى السكرتير الخاص للحاكم العام بتاريخ 11 يونيو

1924م. ويؤكد الشيخ بابكر بدري الواقعة في مذكراته، إذ يقول إن اجتماعاً سياسياً انعقد بمنزل السيد عبد الرحمن وأن حسين شريف كان يتولى سكرتاريته وكان أمامه مذكرتان، الأولى تدعو لانفراد الإدارة الإنجليزية بحكم السودان، والأخرى تقترح أن تتولى بريطانية الوصاية على السودان لتبلغ به مرحلة الحكم الذاتي في مدى زمني معين. ويضيف بابكر بدري أنه بعد تلاوة الورقة الأولى أثار الشيخ بابكر أمر الورقة الثانية فأسكته السيد عبد الرحمن المهدي ووقع المجتمعون على الورقة الأولى.[26] وإذا حاولنا أن تستقصي موقف الإنجليز من هذه المجموعة لوجدناه في إحدى الوثائق الرسمية. فقد أعدت إدارة المخابرات تقريراً في 16 يونيو عام 1924م، أسمته "الموقف السياسي"، وقالت فيه أن هناك مجموعة تتكون من كبار المتعلمين والقضاة الشرعيين والضباط الوطنيين وكبار الموظفين وكبار التجار يشكل قوة ثالثة تقف بين معسكر القوى التقليدية الذي أعد المذكرة التي تم التوقيع عليها في منزل السيد عبد الرحمن، وبين أولئك المنتمين أو المتعاطفين مع جمعية اللواء الأبيض. ويضيف التقرير أن أفراد هذه المجموعة يتأثرون بالصحافة المصرية ولكن ليس لهم صلة بمصر، وهم يقبلون الوصاية البريطانية ولكنهم يخشون أن يتحول السودان إلى مستعمرة "زنجية" من مستعمرات بريطانيا، ولذلك يطالبون بتحديد مدى زمني يتحقق خلاله الاستقلال. ويمضي التقرير فيقول إنهم ينشرون أفكارهم بالاتصالات الشخصية بين زملائهم الموظفين وبين التجار وزعماء القبائل، ويحدد أسماء من يعتبرهم قادة لهذه المجموعة، ومن بينهم حسين شريف.[27]

مصدر أخير نلجأ إليه لنلقي مزيداً من الضوء على أفكار حسين شريف هو ما حاول أن ينشره في الصحافة الأجنبية. ففي عام 1924م كتب عرفات محمد عبد الله، بوصفه سكرتيراً لجمعية اللواء الأبيض، مقالاً لجريدة التايمز اللندنية عن أهداف الجمعية وأسبابها في المطالبة بالوحدة مع مصر، فكتب حسين شريف يعقب ويوضح رأيه في الأحداث التي مر بها السودان. ورغم أن المخابرات – فيما يبدو- حالت دون وصول المقال للصحيفة، فإننا نجد فيه العديد من الأفكار الجديدة. فهو رغم تمسكه بشعار السودان للسودانيين لا يمانع من قيام نوع من الرابطة بين مصر والسودان، حفاظاً علي العلاقة التاريخية، ولا يمانع أن يشارك المصريون في إرشاد وتدريب السودانيين حتى يبلغوا مرحلة الحكم الذاتي وتقرير المصير، ويوجه لحكومة السودان (الإدارة البريطانية) نقداً شديداً لأنها لم تنفذ مطالب السودانيين في إصلاح التعليم وإصلاح مشروع الجزيرة وتوفير حرية الصحافة وحرية الاجتماع. وأضاف أن تقاعس الحكومة عن تنفيذ هذه المطالب أقنع الناس أن بريطانيا تسعى لتحقيق أطماعها الاستعمارية والاستغلالية في السودان، وجعل المعتدلين من الوطنيين يحسون أن اعتدالهم وإخلاصهم للحكومة لا يجدي، وأن الإدارة الإنجليزية لا تتعاطف إلا مع أولئك السودانيين الذين

يتصفون بالتبعية العمياء لهم. وأكد لهم أن الإدارة البريطانية لو منحت السودان قدراً من الحكم المحلي حينما بدأت الدعاية المصرية في السودان فإن حركة اللواء الأبيض ما كانت لتولد. ويشير بعض المحللين إلى أن موقف حسين شريف الجديد أملاه تخوفه من أن إبعاد مصر سيطلق يد الإنجليز في السودان وأنهم سيستعمرونه إلى الأبد.[28]

إذن نحن هنا على أعتاب طور ثالث في تطور الفكر السياسي عند حسين شريف. فهو لا يتخلى عن مرتكزه الأساسي (السودان للسودانيين)، ولكنه يبدي تحفظات إزاء الاستعمار البريطاني، ويسعى لتوفير الشروط التي تضمن سرعة التحرك نحو الحكم الذاتي وتقرير المصير، كما يسعى للمصالحة مع مصر ويبحث عن دور لها يحفظ التوازن بين القوتين خوفاً من أن يتحول السودان إلى مستعمرة أبدية لبريطانيا.

كانت هذه هي أبرز مساهمات الصحفي السوداني حسين الخليفة شريف الذي داهمته المنية عام 1928م، وهو في الثانية والأربعين من عمره. ولعل السؤال المشروع الذي يبدر هنا ونحن نرصد هذه الأفكار والمواقف، هو: من أين استمد حسين شريف أفكاره؛ ما هي المدارس الفكرية التي أثرت عليه؟

لا شك أن حسين استمد أفكاره أولاً من واقع السودان في فترة زمنية محددة، ومن تراثه العربي والاسلامي، ومن تقاليد المجتمع واحتياجاته العاجلة؛ كما استمد فكره أيضاً من اطلاعه على المتغيرات في أوروبا والعالم العربي من حوله، ومن اطلاعه الواسع وقراءاته المتنوعة. وتكشف دراستنا لآثاره المكتوبة عن سعة الاطلاع وغزارة المعرفة، وقدرة هائلة على استيعاب وتمثل ما يقرأه، وإخضاعه لواقع السودان والتعبير عنه كتابة وخطابة. وكان يكتب بلغة قد تبدو لنا الآن أكثر تعقيداً لاعتمادها على السجع والمحسنات اللفظية والمترادفات والتكرار، ولكن ذلك كان الأسلوب السائد بين الكتاب في عصره.غير أن أسلوبه ــ رغم ذلك ــ يمتاز بالإبانة والوضوح.

كان المتعلمون السودانيون يتابعون صحافة مصر وما تنشر ويتأثرون بمدارسها الفكرية المختلفة، إذ كانت مصر هي الأقرب لهم وصحافتها رائجة بينهم، والمواصلات بين البلدين متيسرة تسهم في حركة الناس والأفكار. وكان تعدد الأفكار السياسية والمدارس الفكرية في مصر يتيح لمختلف القوى أن تجد في الساحة المصرية فكراً يناسبها.

ويبدو لنا من دراسة آثار حسين شريف أنه قد تأثر كثيراً بأحمد لطفي السيد وجماعته التي أنشأت عام 1907 جريدة "الجريدة" ومن بعدها حزب الأمة (المصري). لم يجيء تأثر حسين شريف بهذه المدرسة صدفة أو اعتباطاً أو مزاجاً ذاتياً، بل كانت هناك ظروف موضوعية تؤدي إلى تطابق وجهات النظر بين الفريقين لعل أهمها:

أولاً: إن هذه المجموعة (مجموعة أحمد لطفي) كانت تمثل كبار ملاك الأراضي والأعيان وأصحاب النفوذ الريفي، وهي ــ في نظر أفرادها ــ الوريث الشرعي للسلطة، إذا ما ابتعدت تركيا والخديوية.

لذلك فهي تماثل في وضعها القوي التقليدية في السودان الذين هم أيضاً يرون أنفسهم الورثة الشرعيين للسلطة.

ثانياً: إن هذه القوى كانت تواجه نفس المأزق السياسي الذي تواجهه القوى السياسية في السودان، فسيطرة الخلافة التركية أو الخديوية على مصر تشكل خطراً على السيادة وعلى مستقبلهم، ولذا فهم يرون أن التعامل والتعاون مع البديل الأوروبي (الإنجليز) يمكن أن يخلصهم من سلطة الخليفة واستبداد الخديوي، وسيسهل عليهم بعد ذلك التخلص من الإنجليز تدرجاً وتفاهماً [29].

أياً كانت الأسباب، فإن أثر هذه المدرسة كان واضحاً في تفكير حسين شريف حول تعريف الدولة القومية، وفي رفض فكرة الجامعة الإسلامية، وفي فكرة التعامل مع البريطانيين والتدرج تحت إرشادهم، وفي اعتناق مبدأ (المنفعة)، فكلاهما يؤكد أن المنافع لا العواطف ينبغي أن تحكم تصرفات الأمم. ليس هذا فحسب، بل إن حسين شريف استعار هذا العنوان الذي كتب تحته لطفي في "الجريدة" ليجعله عنواناً لإحدى مقالاته عن المسألة السودانية؛ على أن المفارقة هي أن مدرسة احمد لطفي السيد أصيبت بخيبة أمل عام 1914 في المشروع البريطاني حينما اكتشفت البطء في تنفيذ الإصلاحات، بل التنكر لها، وغيرت تبعاً لذلك موقفها. وتعطلت الجريدة وانحل الحزب واندمج أعضاؤه في الوفد وشاركوا في ثورة 1919. بينما ظل حسين شريف مخلصاً لفكرهم إلى أن أصيب بخيبة أمل مماثلة في أعقاب سنة 1924 ويبدو أن التأثر بتلك المجموعة المصرية قد استمر في أذهان قادة القوى التقليدية بالسودان بعد وفاة حسين شريف، فأخذ حزب الأمة السوداني من ذلك الحزب المصري الذي اندثر قبل مولد حزب الأمة السوداني بثلاثة عقود.

ومهما يكن من أمر فإن المرء لا بد أن يستوقفه هذا الأثر الكبير للفكر السياسي المصري على السودان، ولعل دراسة أخرى ترصد أبعاده. فهذه مدرسة فكرية سودانية معادية سياسياً لمصر تتجاوب مع مدرسة مصرية، تماماً مثلما تأثر دعاة وحدة وادي النيل بفكر مصطفى كامل أولاً وحزب الوفد فيما بعد؛ بل ظل هذا الأثر ماثلاً حتى اليوم: فمن مصر جاء فكر الأخوان المسلمين وعبر مصر جاء الفكر الماركسي وتبنت سلطة مايو (1969-1985م) شعارات الناصرية في تحالف قوى الشعب العامل بل وأخذت اسم التنظيم السياسي (الاتحاد الاشتراكي). وبيننا اليوم من يتحدث عن تنظيم سياسي واحد تتشكل داخله "منابر" على غرار التجربة الساداتية. وبودي أن يدرس أحد الباحثين أبحاث هذه الظاهرة.

خاتمة

في ختام هذه الورقة نلاحظ أن أفكار حسين شريف مرت بثلاثة مراحل، واتخذت تبعاً لذلك ثلاثة مسارات:

المرحلة الأولى كانت تقدم مشروعاً تنويرياً استنهاضياً يهدف إلى الإصلاح السياسي

والاجتماعي والديني، وإلى استنفار القوي الحديثة للإسهام في البناء الوطني والتكوين القومي وتحقيق الوحدة الوطنية ونشر الوعي والتعليم ــ وهذه كلها أهداف ذات طابع قومي، لم يعارضها أحد، وتقبلها المجتمع بحسبانها طموحات مشتركة. هذا التوجه كان مقبولاً وآخذاً في التصاعد، وتبنته المدارس الفكرية التي نشأت في الثلاثينيات وطورته، وأتى أُكُلَه بقيام مؤتمر الخريجين هيئةً وطنيةً جامعة ومُنبراً مشتركاً، رغم الخلافات السياسية.

المرحلة الثانية شهدت طرح الأفكار السياسية للقوى التقليدية حول مستقبل السودان. كان هذا محور الخلاف، ففيما يتعلق بالموقف من مصر والموقف من بريطانيا كانت القطيعة تامة بين مدرستين. أولاهما، بثقلها العددي ونفوذها المووث، نادت بالتدرج تحت إشراف بريطانيا نحو الاستقلال دون التزام بقيود أو زمن، بينما نادت الثانية بالارتباط بمصر وإجلاء بريطانيا. فكر حسين شريف في هذه المرحلة كان الهادي والمرشد لجماعة المدرسة الأولى، لكن الجماعة لم تظل على وحدتها فتآكل تحالفها وانحصر المشروع في طائفة الأنصار وعبر عن نفسه مستقبلاً بقيام حزب الأمة.

في المرحلة الثالثة لم تتزعزع قناعات حسين شريف بالتدرج نحو الاستقلال، ولكنه أصيب بخيبة أمل في جدية بريطانيا ورفض البطء والتلكؤ في التنفيذ، وبحث عن وسيلة للتوازن بين مسئوليات بريطانيا ومصر في إدارة السودان. لم يعش حسين شريف طويلاً ليطور هذه الفكرة، ولكننا نرى في الثلاثينات من يتبناها:مدرسة الفجر التي تريد تدرجاً بخطى أسرع والتزاماً بـ"الذات السودانية" وبالحكم الذاتي وتقرير المصير. ونستطيع أن نلمح من بين سطور ما كتبوا أثر حسين شريف.

وبعد، تلك لمحات عجلى تسلط شيئاً من الضوء على فكر أول سوداني يتخذ الصحافة مهنة له، ومنبراً لطرح أفكاره في وقت مبكر من هذا القرن. وفي عدد قادم بإذن الله نلتقي بالمشروع المضاد لمشروع حسين شريف ونحاول أن نتتبع أثره وتأثيره على مستقبل الحركة السياسية في السودان.

الحواشي:

1. زين العابدين حسين شريف ــ باكورة الوعي ــ بدون تاريخ صفحة 4.
2. جريدة السودان ــ الخميس 21 سبتمبر 1911.
3. كانت رئاسة النادي لعميد كلية غردون بحكم منصبه وأعلى منصب بعده هو "وكيل النادي" الذي انتخب له حسين شريف.

4. جريدة السودان ــ مصدر سابق. انظر أيضاً محجوب محمد صالح الصحافة السودانية في نصف قرن. الطبعة الثانية. مركز الدراسات السودانية، القاهرة 1996م. صفحة 29.

5. الحضارة 19 إبريل 1919.

6. الحضارة 21 يونيو 1919.

7. الحضارة 10 مايو 1919.

8. الحضارة 30 مارس 1919.

9. الحضارة 26 إبريل 1919.

10. الحضارة 30 مارس 1919.

11. المصدر السابق.

12. الحضارة 19 إبريل 1919.

13. المصدر السابق.

14. الحضارة 26 إبريل1919.

15. المصدر السابق.

16. المصدر السابق.

17. الحضارة 3 مايو 1919.

18. تشكلت الشركة التي أصدرت الحضارة في مرحلتها الأولىُ من السيد عبد الرحمن المهدي، السيد حسين الخليفة شريف، السيد محمد الخليفة شريف، السيد خليل عكاشة، عثمان صالح، حسن أبو، محجوب فضل المولى وعبد الرحمن جميل ــ وكلهم من أنصار السيد عبد الرحمن المهدي.

19. للإطلاع على نص المقالات الأربعة راجع: محجوب محمد صالح، الصحافة السودانية في نصف قرن، مرجع سابق ــ الصفحات من 50-60.

20. محجوب محمد صالح: مرجع سابق ص 83.

21. المرجع السابق صفحة 65.

22. المرجع السابق صفحة 59.

23. جمال محمد أحمد: الأصول الفكرية للوطنية المصرية الترجمة العربية د. محجوب التجاني. القاهرة 1996، الطبعة الأولى.

24. محجوب محمد صالح، مرجع سابق، صفحة 66.

25. د. جعفر محمد علي بخيت:

'British Adminstration & Sudanese Nationalism, 1919- 1939', Cambridge, 1965.

رسالة دكتوراه (مخطوطة). صفحات 83-84. نقلاً عن مذكرة المخابرات رقم SGA/D. 1 /X / 27,830 المؤرخة 16 يونيو 1924 والتي ذكرت أسماء بقية هذه المجموعة وهم السادة: السيد الفيل ــ أحمد محمد أبو دقن ــ أبو شامة عبد المحمود ــ حامد صالح ــ عبد الله خليل ــ حلمي أبو سمرة ــ طه صالح حلمي أبو سن ــ بابكر بدري ــ علي أبو قصيصة ــ إبراهيم إسرائيل.

26. بابكر بدري: تاريخ حياتي، الجزء الثاني، صفحة 174. مطبعة مصر الخرطوم (ب.ت).

27. راجع 25 أعلاه.

28. فيصل عبد الرحمن علي طه: الحركة السياسة السودانية، الطبعة الأولى، دار الأمن القاهرة 1998، صفحة 70. نقلاً عن محمد عمر بشير: تاريخ الحركة الوطنية في السودان صفحة 101.

29. Daly, British Administration & Northern Sudan, p. 12.

Daly, Empire on The Nile, Anglo-Egyptian Sudan: 1898 –1934, p. 296.

لمزيد من المعلومات عن موقف هذه الجماعة راجع جمال محمد أحمد . مصدر سابق.